

صناعة العقل في ضوء هدايات القرآن الكريم وأثره في ضبط المنظومة الإنسانية

Creating the mind in light of the guidance of the Holy Qur'an and its impact on
controlling the human system

عبد الغفار بن نعمة*

جامعة وهران 1 أحمد بن بلة (الجزائر) bennamia.abdelghaffar@univ-oran1.dz

تاريخ النشر: 2025/06/01

تاريخ القبول: 2025/05/12

تاريخ الاستلام: 2024/11/21

ملخص:

متابعة الآيات الدالة على صناعة العقل في القرآن الكريم تتطلب أيضا عقلا متميزا في النظر والتمحيص، إذ تتعامل النصوص الدالة على ذلك بمنتهى الدقة في التوصيف فالمسألة تتعلق بالمرافقة عبر جميع مراحل النمو الاجتماعي للشخص، لأن هذه الرعاية المبكرة هي الضامن لتحصيل مجتمع متكامل بمنظومته الأخلاقية خصوصا والإنسانية عموما، ومن خلال هذه الدراسة نجتهد في توضيح تلك المسارات والمتابعة القرآنية لتلك المراحل والتأكيد في نهاية المقال على أن خطاب القرآن لا يعمل مع مختلف القضايا التي عالجها إلا في إطارها المنظوماتي التكاملي بما فيها قضية بناء العقل وصناعته كلمات مفتاحية: بناء الإنسان، السلوك، صناعة الفكر، خلافة الأرض، العقل، عمارة الأرض

Abstract:

Following the verses indicating the making of the mind in the Holy Quran also requires a distinguished mind in looking and scrutinizing, as the texts indicating this are used with the utmost precision in description, as the issue is related to accompaniment through all stages of the person's social growth, because this early care is the guarantor of achieving an integrated society with its moral system in particular and humanity in general. Through this study, we strive to clarify those paths and the Quranic follow-up of those stages and emphasize at the end of the article that the Quranic discourse does not work with the various issues it addressed except within its integrated systemic framework, including the issue of building and making the mind

Keywords: Human building; Behavior; Thought Industry; Caliphate of the Earth Mind; Earth architecture

*المؤلف المرسل

يشكل العقل في القرآن الكريم محورا مهما في مجالات الاهتمام بوجود الإنسان وكيونته، ولا تقتصر أهميته على مجرد التفريق بين عاقل وغير عاقل، بل تتعدى ذلك إلى تمييزه وتمييزه بين جنس العاقل ذاته، فعلى العقل إذا مدار العلم والعمل، وعليه التعويل في تحصيل معنى الإنسان الذي حظي في خطاب القرآن الكريم بمختلف معاني التكريم والتبجيل.

لقد بُنيت رسالة القرآن بمختلف أبعادها على الإنسان وفهمه وتفكيره ومنهجه في الحياة، وهذه المسائل هي الحاكمة في الأخير على مصيره المحكوم أصلا بسلامة العقل، إذ لا يمكنه التصرف دون وجود عقل فحسب بل دون وعي هذا العقل في ذاته، والدليل على هذا تلك الترسانة الواسعة من الآيات القرآنية التي توجّه الإنسان إلى حسن التصرف والمعاملة تحت حاكم العقل والتمييز.

إنّ المراجعة المستمرة المتأمله لخطاب القرآن الكريم ستظل تؤكد على حقيقتين مهمتين، أولاهما مركزية الإنسان في المنظومة الحياتية، وثانيهما مركزية عقله في المنظومة الإنسانية، وكلاهما يسري في نفس سياق تكريم الإنسان وتمييزه على سائر المخلوقات، وهي لفئة تفضيلية تتطلب من الإنسان تقديرها حق قدرها، وذلك بالوقوف عند الأوامر والنواهي والحلال والحرام ومختلف الأحكام الشرعية.

قد يكون من المهم جدا النظر إلى بناء الإنسان وصناعة عقله ضمن دائرة واسعة النطاق من التوجيهات القرآنية التي تستمر في الحياة، مثلما يستمر خطاب القرآن في الحياة، وبالضرورة فحدودها العامة هي أحكام القرآن وتشريعاته الثابتة، لكن فضائلها وأخلاقياتها قابلة للتثمين حسب خصائص كل جيل وكل بيئة، وفي عصر العولمة والمعلوماتية هذا يقدم العقل الحديث العديد من الإضافات لم تكن تعرفها أجيال سابقة، ولا ينقصها إلى أن تنضبط تلك المعرفة بالضوابط القرآنية، التي تُحافظ على الدين والنفس والعقل.

سنحاول في هذه الدراسة معالجة بعض تلك المسائل المتعلقة بالعقل، وبناء الإنسان بما يتماشى مع سياق الهديات وفق ثلاثة مباحث: يتعلق الأول بالمسارات العملية الدالة على تميّز الإنسان، والثاني حول المنظومة الإنسانية، والثالث حول المنظومة العقلية. مع خاتمة وتوصيات، وذلك على التفصيل التالي:

2. : المسارات العملية الدالة على تميّز الإنسان ضمن المنظومة الإسلامية:

يُمكننا أن نعالج هذه المسارات من خلال دراسة مسألة المركزية الإنسانية. (والمركزية هنا هي الأدوار التي يؤديها الإنسان ويتحدد بها مصيره). في المنظومة الحياتية، ونعتقد أنها أهم ما تقوم عليه تلك المسالك والمسارات العملية التي اهتم لها القرآن الكريم والتي تبيّن وبدقة مكانة الإنسان ضمن المنظومة الإسلامية الخَلقية والخُلقية المختلفة والمتنوعة والواسعة جدا، والتي لا يحدّها زمان ولا مكان، (نقصد بها مخلوقات الله تعالى في الكون والحياة مما يرى وما لا يرى)

وقد جاء خطابها موجّها ومرتبطا رأسا بالإنسان، وسنحدد ذلك في المسارات المركزية التالية:

1.2 أولا: مركزية الإنسان في مسألة سجود الملائكة:

مسألة السجود لها وجهين، أولهما نبوي باعتبارها خاصة بسيدنا آدم عليه السلام، والثاني بشري باعتبار ارتباطها المباشر ببشرية سيدنا آدم أبيضا وهو الخليفة في الأرض، وقد جاء التدليل علما في القرآن الكريم في مواضع كثيرة، على سبيل التمثيل ما جاء في سورة الحجر الآيتين ٢٨ / ٢٩ .

هاتان الآيتان تعتبران المنطلق الأول لأصل الوجود الإنساني، وفيها نسب الله تعالى خلق آدم عليه السلام لذاته عزّ في علاه وما ذلك إلا إشارة إلى مكانته ورفعته عند الله تعالى: وقد جاء في تفسير ابن كثير في معنى الآية أن الله تعالى خلق آدم بيديه تكملة له وتعظيما لأمره، إضافة إلى ما يفيد الخطاب من وجه السرعة والإنابة في تنفيذ أوامر الله تعالى في السجود من خلال لفظ "فقعوا"

تظهر تلك المركزية إذا من جوانب كثيرة ذكر أهل التفسير منها ما ذكروا واختلفوا اختلاف تنوع ودلالات، وأشار بعضهم ومنهم الإمام الألوسي إلى مكانة آدم من جهة الإخبار بخلقه قبل حدوثه، وتسميته بشرا من جهة مباشرة الله تعالى خلقه بيديه، وأنّ الله تعالى أضاف الروح إلى نفسه تشريفا لها وتعظيما" (الألوسي، 1415هـ، ص 298)

فسجود الملائكة إذا ارتبط رأسا بمسمى البشر أو الإنسان وبأمر إلهي وكل هذا تأكيد على أهميته ومركزيته في شؤون الكون والحياة.

2.2 : ثانيا: مركزية الإنسان في قضية الخلافة في الأرض:

قد يكون من الصعب جدا فهم مآلات الاستخلاف المنوطة بالإنسان، وهي على قدر ما تعكس قيمة الإنسان ومكانته فهي أيضا تشمل ما يجب أن يكون عليه وهو خليفة الله تعالى في الأرض، وقد جعل القرآن الكريم مسألة الاستخلاف هذه على تفصيلات مهمة، فأوردها على صيغتين مفردة ومجمعة، وأورد المفرد منها أيضا على صيغة عامة وخاصة، فأما العام منها ففي الآية 30 من سورة البقرة. وأما الخاص منها ففي الآية 26 من سورة ص.

وهو خطاب موجه للنبي داود والأصل فيه الاقتداء، لأن الآية تشمل توجيهها ربانيا لما يجب أن يكون عليه المستخلف في الأرض (الإنسان/ النبي)، كما جاء التنبيه إلى هذه الأهمية بصيغة الجمع في مواضع كثيرة وباشتقاقات مختلفة تدل جميعها على أن الإنسان مُكَلَّف ليس باستكمال المهمة بل بحسن أدائها أيضا، منها ما جاء في سورة الأنعام: 156. جاء في تفسير ابن كثير في مفهوم العمارة: "أنها زمن بعد زمن أجيال وقرون وخلف بعد سلف" ¹ (ابن كثير، 1419هـ، ص 345)

كما جاء في سورة يونس الآية : 14، ويونس: 73، وفاطر: 39، والأعراف: 74، و النمل: 62، والزخرف 60، والأعراف 129

فجميع هذه الصيغ موجه خطابها إلى الإنسان لا إلى غيره، وورود لفظ الاستخلاف بصيغة الجمع يدل أيضا على أن المهمة جماعية وليست فردية وأن الجميع منوط بمسؤولية الاستخلاف كل في مجاله وتخصُّصه، وأن الهدف منها هو الاستمرار في عمارة الأرض وإصلاحها ولا يكون ذلك إلا بالعقل.

2-3: ثالثا: مركزية الإنسان في مهمته التعبدية:

بموجب ما جاء في الآية 41 من سورة النور والآية 21 من سورة البقرة: يكون الإنسان من مجموع ما يسبح لله تعالى عبادة، وصيغة الأمر بالعبادة هنا لم توجّه إلا للإنسان من سائر من يسبح لله تعالى من خلقه ومخلوقاته، وهو خطاب أهمية يعكس مركزية عبادة الإنسان وأهميتها بالنسبة له، إذ لا تستقيم تلك العبادة إلا بالعقل الذي حظي به، وعليه

فوجود العبادة لله تعالى في الأرض تتحقق بالإنسان لكنها لا تعود بالنفع على المعبود بل على العابد نفسه، وبها صلاح دينه ودينه.

العبادة التي كلف بها الإنسان في الواقع تتجاوز معنى المهمة إلى معنى الحياة، ليصبح مسماها الحياة التعبدية، ووصولها إلى هذا المُسمى تحتاج إلى الإنسان وعقله معا فهو لا يجدها جاهزة، وإنما يعمل لها عملا مستقيما وشاقا، وعموما فالربط بين الإنسان وعقله مُستصحب في كل مجالات عمله وتواجده، لكنه هنا يشكّل واجهة مناسبة لصلاح العبادة.

إنّ في آية سورة البقرة السالفة تلميحاً مهماً جداً فهي تندرج ضمن طائفة واسعة من الآيات التي تتضمن نداءات الله تعالى لعباده وخلقه، والتي تأتي في القرآن عادة لأداء حق العبادة لله تعالى بموجب مقام الخالقية، وفي النهاية لا وجود لغاية أخرى في حياة الإنسان غير العبادة، فالحياة لا يمكن أن تكون بدون هدف خادم لصلاح الإنسان، ويفهم هذا من خلال 56 من سورة الذاريات، 56، والآية 115 من سورة المؤمنون:

ومن الطبيعي أن لا يتم حصر مفهوم العبادة في ما تم النص عليه فقط، فالعلماء يجتهدون باستمرار في التنصيص على ما يروونه لله عبادة قلبية أو سلوكية أو أخلاقية أو غيرها.

4-2: رابعاً: مركزية الإنسان في مهمته البنائية. عمارة الأرض :

مسألة عمارة الأرض هي النتيجة الحتمية لممارسة الإنسان خلافته فيها، فهما مسألتين مترابطتين رأساً، ومن الجيد التنبيه هنا إلى أنّ عدم ضبط تصور هذا الارتباط سيكون سبباً في اضطراب مفهوم عبادة الله تعالى، وعليه فمهمة الإنسان المنوطة به في عمارة الأرض هي الخلافة، وقد وصف ذلك الارتباط في بعض الأبحاث "بعمران الاستخلاف" بكل ما تدلل عليه اللفظة من جوانب بشرية وكونية" (الأنصاري، 2009، ص 17)

لقد جاءت الإشارة إلى هذه المسائل في الآية 61 من سورة هود، ولفظ أنشأكم الوارد فيها يشير عند المفسرين إلى بدء أصل الخلق، ومعنى الاستعمار أي الاستغلال.

لقد نبّه الخطاب القرآني أنّ مركزية الإنسان في مهمة العمارة مرتبط بنجاحها بالامتناع عن العبث والفساد والإفساد فيها، ومن خلال الآيات الدالة على ذلك يظهر العقل مرة أخرى ليثبت مهمته ودوره، كالذي ذكره القرآن الكريم في الآية 11 من سورة البقرة، والآية 56 من الأعراف أو الآية 56 من الأعراف أيضاً، ولم يكن ذلك النهي المذكور فيها ليقدم

الإنسان وحده وهو الذي يعيش في هذه الأرض، بل لأن الله تعالى أيضا لا يحب الفساد ولا الإفساد، كما قال في البقرة: الآية 205، وهذا من تمام العبادة لله تعالى والامتثال لأوامره. ولن تتم هذه الأوامر والنواهي إلا بالعقل.

لقد شكّلت هذه المسارات الأربعة صورة مناسبة للإنسان المنشود، وهي مجموع ما هيّأه الله تعالى له ليكون متميّزا، وهي في الواقع مسارات تكريمية لها ما أهميتها في مجالات أخرى ذكرها القرآن الكريم، كخلق الإنسان في أحسن صورة، تسخير الكون والطبيعة له، وتكليفه بالأمانة، وتوفير ما يحتاجه من النعم في الأرض، وغيرها.

نؤدي هذه المسارات دورا عمليا واضحا في صناعة الإنسان العاقل، وضمن المنظومة الإسلامية الواسعة مجالاتها، تظهر الأعمال الإنسانية بلا قيمة إذا انعدمت أهدافها ومآلاتها، وفي كل هذا تبقى للعقل أدواره الموجهة وليست المتسلطة، بمعنى تكون له سلطة التوجيه لا التسلط في التوجيه.

قد تتفق الدراسات العربية الإسلامية مع الغربية في مسألة محورية الإنسان في مجالات متعددة، لكن في المساحة العربية الإسلامية أكثر ضمانا لنتائج موضوعية فقط لانضباطها بخطاب الشرع، وعليه لا يمكن تنتج مركزية الإنسان من العدم كما لم ينتج هو أيضا من العدم، كما لا يمكن أن تدرس في إطارها المجرد باعتبار الإنسان هو الكيان الأكثر أهمية في الحياة، بل في إطارها الروحي أن الإنسان عليه مدار خطاب الشرع، وعليه مدار العمل وهو كائن له مهام منوطة به شرعا فيها تكاليف وأحكام شرعية.

قد لا يمكننا حصر المقولات التي جاءت في سياق التأكيد على مثل هذا حتى في الدراسات الغربية ومنها أنّ محمدا (صلى الله عليه وسلم): "قد أسس ديانة عالمية تقوم على تبسيط العقائد، يؤدي العقل فيها دورا بارزا في عملية الإيمان بالإله الواحد الذي يكافئ على الفضائل، ويعاقب على الرذائل" (السعدي، 2013، ص 288)

إننا نصادف هذا الطرح حتى في الدراسات والأبحاث المهمة بالتصوف، فالمتصوفة يجعلون من الإنسان مركزا وجوديا، وهم يركزون على بناء روحه كما يُبنى جسده بالضبط وهذا الجانب الذي يعمل عليه التصوف منطوق مميز في أدب السلوك، ونعتقد أنّ التصوف مساحة جيدة لدراسة تلك التجليات البنائية التي يستنتجها المتصوف تجاه الإنسان.

3. المبحث الثاني : المنظومة الإنسانية في إطار هدايات القرآن الكريم:

لا يختلف اثنان أن القرآن الكريم كتاب متكامل، وخطابه كذلك، لذلك فكل منظومة تناولها فهي متكاملة أيضا، ومن بينها المنظومة الإنسانية، التي تأسست بكامل أخلاقها وفضائلها مع البعثة النبوية وتزامن اكتمال مظاهرها بالسلوك النبوي الشريف، فقد كانت شاملة لمختلف القيم التي يحتاجها الإنسان في حياته، ولم يكن مطلوبا من الإنسان في سبيل تحصيل هذه القيم أكثر من الاقتداء، وقد أشار القرآن الكريم في الآية 21 من الأحزاب إلى قضية الأسوة الحسنة الممثلة في شخص النبي الكريم عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم.

قد يكون من المناسب أن نعالج هذا المبحث انطلاقا من مسلك الهداية، وفي هذه المسألة سيكون الربط بين مقام النبوة والإنسان دقيقا جدا، فالله تعالى أشار في الآية 56 من سورة القصص إلى أن الهداية مرتبطة رأسا بمشيئة الله تعالى لا علاقة لمقام النبوة بها إلا من جهة أداء المسؤولية، ورغم نزول الآية في سبب خاص بعم النبي صلى الله عليه وسلم، فالعبرة بعموم لفظها لا بخصوص سببها، ويلزمنا هنا الربط بدقة بين منطوق النص الذي يفيد بأن الهداية من الله وحده، وبين تمييز الإنسان بعقله لا بهواه، فلا تناقض بين الأمرين لأن الإنسان حين تشتغل آله العقلية والفكرية لمعرفة الحقيقة، تكون "هداية التوفيق والتسديد والتثبيت من الله وحده" وسندا لهذه العملية. وهذا تأكيد ملزم للدور النبيل الذي يؤديه العقل لدى الإنسان، وهو المسؤول عن نجاة ذاته.

لا يتحدث القرآن الكريم عن الإنسان إلا في إطار اعتباره قائدا في تسيير مختلف مجالات شؤون الحياة، ولا شيء تقوم له قائمة دونه، فالإنسان المنشود لا يأتي عبثا، لكنه يتكوّن بتوجيهات الوحيين معا، وعليه مدار العمل.

وبالعودة إلى تأصيلات خلافته في الأرض فهو منتظر في مهام مدنية ومجتمعية واقتصادية وحتى أمنية وإدارية، وفي الواقع يتناسب هذا تماما مع حرص القائمين على القطاعات المجتمعية المختلفة على هندسة المجتمع كل حسب تخصصه، فالإدارة تسعى لصناعة رجل إداري، وكذلك الجهات الأمنية، والعسكرية، والاقتصادية، وغيرها جميعا من المهن اليدوية خارج من رحم الدين الإسلامي والتوجيه له قائم في نصوص القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة.

تسعى التوجيهات القرآنية والنبوية في هذه الحال إلى تحصيل قيمة الرقي في المجتمع، وتدعيم الاعتقاد بتكامل المنظومة الإنسانية من خلال حرص كل جهة على صناعة الإنسان المختص، وهذا يجعلنا نفهم بقوة أنّ التمسك بنصوص القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة كفيل وحده بأي تطور فكري تنشده البشرية.

في ذات الصدد سيكون مهما النظر إلى مجالات الحياة المختلفة التي يؤدي فيها الإنسان دوراً مهماً كإطار متكامل، وعليه فالمنظومة الإنسانية جزء لا يتجزأ من "المنظومة الخلقية الإسلامية، فهي أعلى مثل في ضبط سلوك المجتمع وأنظمتها التشريعية" (التركي، 1419هـ، ص 92).

في المقابل لا يتساهل القرآن الكريم في التشديد على تصرفات العبث واللعب واللهو التي قد تلتصق بالإنسان في حياته اليومية، كالذي ذكره في الآية 115 من سورة المؤمنون، أو المائدة 57، أو الأعراف 51. وتلك جميعها تنبيهات نبهة إلى أهمية وجود الإنسان في الحياة، ومكانة الأدوار الموكلة له، فقد وافق على تحمّل الأمانة من قبل وعليه أن يرقى ما تحمّله.

يأتي ذلك التشديد القرآني لأنّ بعضاً من طبائع الإنسان قد تصنع منه ظالماً أو متعدياً أو طاغياً، ولأننا نؤمن جميعاً أن الله تعالى لا يوفق إلا إلى خير، فإن كان إنساناً صالحاً فهداية الله وحده، وإن كان عكس ذلك فلخلل ما يعتري ذاته، والإنسان إذ يعيش بين كونه صالحاً أو طالحاً فرق مهم يجب الاعتناء به، وقد تحدد هذا المعنى في الآيتين 5/4 من سورة التين.

بين الأمرين إذا حاجز فاصل لكن التدقيق يكشف لنا أن تعامل الإسلام مع الإنسان ومنهج بناءه يعتمد على هداية الله تعالى له، وعلى أسس تربيته الأسرية، ودليل ذلك ما ذكره القرآن الكريم في الآية 30 من سورة الروم.

من المفيد في هذا المجال أن نجد الدراسات الاجتماعية حين تأصل لقضية التنشئة تجعلها في إطارها الموضوعي، ويعرفونها بأنها عملية: "هدفها تكاملي بين فئات المجتمع، كما تعنى بدفع تلك الفئات إلى إيجابية السلوك والنتيجة معا" (علي عباس، 2017، ص 60)

وهذا دليل مدني اجتماعي على أنّ تحصيل الإنسان وزيادة على كونه غير ناتج من فراغ، فهو عملية غير سهلة أيضاً، وأنّ مفاهيمه تفوق التصور السطحي لوجود كائن بشري جديد في الحياة.

رغم توافق هذه التعاريف مع المفاهيم الشرعية، لكن تفوق هذه الأخيرة كان لتمييزها وعمق نظرتها إلى قضية التنشئة، وتجعل للجانب الروحي مكانة مهمة، ولا تفصل بين مستويات الرعاية التي تعتبرها ضرورية في كل المراحل، وبمجرد وجود الإنسان في الحياة تبدأ عملية الاهتمام بالمنظومة الفكرية والسلوكية لأن قضية التنشئة لها موجه عظيم وهي مرتبطة به رأسا هو القرآن الكريم.

من هذا المنطلق لا يمكن في حياتنا الإسلامية اعتبار المنظومة الإنسانية منظومة فارغة، وهو الإنسان. حين يكتسب باقي المنظومات الفكرية والسلوكية والقيمية والأخلاقية وغيرها فليس ذلك لشجاعة أو ذكاء منه، بل لأن لديه موجه وحارس أمين وهو القرآن الكريم، ولا يحتاج من الإنسان أكثر من السمع والطاعة والتفكير.

يفترض في هذه الحال أن يبحث الإنسان عن إجابة لذلك السؤال الشرعي: كيف يصنع الإسلام إنسانا مسلما أو صالحا؟، والإجابة على هذا السؤال لا تبدو بتلك السهولة المنتظرة، والأصل في ذلك هو حديث النبي عليه الصلاة والسلام المروي عن أبي هريرة والذي يفيد أن للوالدين مسؤولية كبيرة جدا في تحديد الهوية الدينية للمولود، وهذا دليل شرعي لا يقبل التأويل في تحديد المسؤوليات.

هناك سؤال منطقي قد يتبادر إلى أذهان البعض يتعلّق بقدرة القرآن الكريم على توجيه نفس الضوابط البنائية للمجتمعات الإنسانية منذ نزوله إلى انتهاء الدنيا رغم اختلاف البيئات المجتمعية على مرّ العصور، وتباين الثقافات، والعادات والتقاليد والأعراف وحتى نمط التفكير، وفي الواقع قد أمرنا الله تعالى بها تحت مسمى التدبر في مواضع كثيرة، هذا يجعل القراءة المطلوبة لنصوص القرآن الكريم هي القراءة العميقة المتبصرة، إذ لا ولن تشهد البشرية خطابا مماثلا في هذه القوة من الإقناع والمسيرة للفرد والمجتمع على مرّ العصور والأجيال.

ويدلّنا هذا الصمود على أنّ القواعد البنائية للإنسان في إطارها العام موحّدة ولا تتغير حسب منطق القرآن الكريم، وهو ما تكشفه لنا عملية التدبر المأمورون بها في القرآن الكريم.

وعليه فإن كانت هذه المحددات المشتركة مرتبطة ببناء شخصية الإنسان فهي مرتبطة أيضا ببناء تفكيره، وسيكون المنهج المنظومي هو أحد المناهج التي يكشفها لنا هذا التدبر في تعامل القرآن الكريم مع الفكر الإنساني، بمعنى أن القرآن الكريم يبيّن فكر الإنسان على وفق منهج منظومي مترابط لا يهتم بأشياء دون أخرى، وهو منهج متبع في مختلف القضايا التي يعالجها.

إنّ المقارنة منعقدة أصلا بين التصور المنهجي الذي يطرحه القرآن الكريم تجاه الإنسان وبناءه، وبين الدراسات والأبحاث المعادية والناقدة له، والتي تجتهد سلبا في معارضة خطابه ونقده، وهي تركز على جانب دون آخر، فالإنسان عندها جسد مادي لا روح له، لأنها دراسات تنطلق من الوهم لا أساس ديني أو شريعة صحيحة تستند إليها، ونتاجها مؤلمة، على خلاف القرآن الكريم الذي يربط جميع الأجيال الإنسانية بالمجتمع الإسلامي الأول.

على ضوء هذا فإنّ الإجابة عن أسباب غياب الفضائل في المجتمعات العربية والإسلامية، هو غياب البحث عن أسباب المجد السالفة، ونعتقد أن الانفصال عن الحضارة الإسلامية هو انفصال تام عن منهجية بناء الإنسان، ذلك أن: "الإسلام يعمل في مجالين متناغمين هما الثقافة والحضارة، اهتم ببناءهما على مدار تعاقب الأجيال، ولن يتحقق وعي الإنسان إلا بوعيه الحضاري لتراثه" (الفاروقي، 1984م، ص 43)

4 - المبحث الثالث: المنظومة العقلية في إطار هدايات القرآن الكريم:

الحديث عن المنظومة العقلية في القرآن الكريم هو الركيزة الأساسية لصناعة الإنسان، وتحديد منظومته السالفة، وهو أيضا حديث متعدد الجوانب ليس فقط لتعدد أساليب وألفاظ توظيفه في خطاب القرآن الكريم، بل للدلالات العظيمة التي يشملها ذلك التنوع، ولأن الموضوع لن يعتمد إلى تعداد مواضع توظيف مصطلح العقل بصيغه المختلفة فالدراسة ليست إحصائية، فستركز على طرح موضوعي يُقدّم المنظومة العقلية أصلا رصينا في صناعة الإنسان المنشود.

قد يساعدنا اعتبار الهدايات القرآنية المنظومة الأصل، وتوابعها أو فروعها متعددة وكثيرة كالعقل والفكر والإنسان وهي منظومات فرعية وغيرها كثير، ذلك أن كل ما في هذه الدنيا مرتبط بالإنسان فغرضه هدايته وتوجيهه، فالعقل والفكر والكون والحياة والطبيعة كلها في خدمته لغرض الهداية والإرشاد.

قد يكون من المناسب في سياق البحث عن تلك العلاقة بين منظومة الهدايات والمنظومة العقلية عند الإنسان، النظر في الآيات المرتبطة بسيدنا إبراهيم والتي تشير بدقة إلى اجتهاده عليه الصلاة والسلام في تشغيل فكره وعقله لإثبات وجود الله تعالى، الآيات 74 إلى 78 من الأنعام.

مجمل الدراسات الإسلامية لم تقف على وجود أي تناقض بين العقل والنقل، وحتى بعض الدراسات الغربية الموضوعية التي لا تؤمن بالوحي أو الشرع وتجعل الكون في دراساتها أصلاً تُفصح عن تلك العظمة الكونية التي تفوق تصورات العقل.

لذلك فإن محاولة فهم تلك العلاقة يجب أن تنتهي بالنتيجة الحتمية، هي امتناع حصول التناقض والتعارض أو الاختلاف وهذا يحتاج إلى عقل مميز بحسن التفكير، ومتميز بحسن الاستنتاج.

وعليه فتلك التعارض المتوهم بين النقل والعقل ترده حقائق الواقع المشهود والشاهد على حقيقة ذلك التوافق، وربما هي الميزة التي تميز به دين الإسلام مقارنة بغيره من الديانات المنحرفة.

من جهة أخرى فإنّ الله تعالى لا يخاطب الإنسان إلا من خلال العقل والحواس، لذلك يذكرها أحياناً مجتمعة في سياق واحد، كما فعل في الآية 46 من سورة الحج، والآية 179 من الأعراف، وفيهما خطاب توجيهي يسهم بشكل أو بآخر في بناء الإنسان وتشكيل عقله.

إذا أدركنا أنّ العملية التربوية الإسلامية تراعي كل المراحل العمرية للإنسان سندرك أيضاً أنّ القرآن الكريم ينتقل في بناء الإنسان وتشكيل عقله من التهيئة النفسية للمهام الموكلة له إلى الهيبة العقلية التي تصنع قيمته ومكانته المجتمعية، وقوة عقيدته، وهي بالضبط ما وصل إليه مجتمع الصحابة عليهم الرضوان في تقديم الأولوية لمبدأ الاحتياط، والحذر حتى في ما يُظنّ حلاله مخافة الوقوع في الحرام، وهي مهمة معقدة وصعبة نظراً للمعوقات المنتظرة والمحتملة والموجودة أصلاً في طريق الهدايات التي نتحدث عنها هنا.

إذا كان من المهم جداً عدم النظر إلى موضوع بناء الإنسان وصناعة العقل الإنساني في القرآن الكريم في إطاره نظام الهدايات في إطار لا يتعدى حدود العقيدة أو السلوك الأخلاقي، وذلك مطلب شريف وهدف نبيل، لكن يجب النظر إليه في إطاره المجتمعي والمدني

العام أيضا، لأن القرآن الكريم لا يقف ضد معينات مقام الإنسان من طبائع مجتمعية مختلفة، كالنُّبل المجتمعي، والكمال الإنساني، وتطوير الذات، فإنَّ الأهم أن ندرك أن هذه المسائل ذاتها لن يصل إليها العقل دون توجيه روعي أو دين سماوي ورعاية إلهية، وهي الرعاية المستمرة في البشر بطريق النبوات ودعوات الأنبياء.

إنَّ في عدم معارضة العقل للنقل والشرع دلائل كبرى على القدرات التي أعطاها الله تعالى لعقول الناس، وهم مخاطبون بتشغيلها وتوظيفها على أكمل الصور، خاصة وأنَّ الشرع يدعم كل ما يُعين هذا العقل في التدبر والاكتشاف، ويجعل المسؤولية في ذلك جماعية، قادرة على تجاوز العقبات جماعيا أيضا ومنها ما تعلق بخدمة الدين والفضائل والسلوكيات. وهي في الأصل تحديات مستمرة ما استمرت العقبات كما سبق وأن ذكرنا.

من المفيد الإشارة أنَّ منهيات القرآن الكريم في إطار الحرمة مرتبطة هي الأخرى بنظام الهدايات وحفظ العقل معا، فيلزم من شرب الخمر مثلا ذهاب العقل ومعه ضياع العبادات وفساد السلوك، ويأخذ حكم الخمر كل مُسكر.

ولذلك فالقرآن الكريم لا يسعى من خلال هداياته إلا إلى الصلاح والإصلاح، وهو بالذات ما تركز عليه الدراسات المقاصدية التي تعتبر المقصد العام للتشريع مرتبطا جلب الصالح وذراً المفسد، بل يجعل ذراً المفسدة أولى من جلب المصلحة وكل ذلك في إطار الصالح العام، والإصلاح مرتبط رأسا بالعقل وسلامة تفكيره واستدلّاله، بل هي مهمة الأنبياء، كما جاء في الآية 88 من سورة هود القرآن الكريم على لسان النبي شعيب عليه السلام.

لم يرد في نص شرعي ما يدلُّ على أن العقل هو المسؤول عن الهداية، وقد ربطها الله تعالى بمشيئته وحده عزَّ في علاه، ومع ذلك فخطاب القرآن لا يلغي دور العقل في تحقيقها، وزيادة على ذلك فالمهمة شاقة وصعبة ومعقدة، وفي تاريخنا الإسلامي ما يدلُّ على ذلك، في قصة الوليد بن المغيرة الذي أدرك الحقيقة بعقله لكنه زاغ عنها وسيظل ما يذمه ما نزل من القرآن يتلى إلى يوم الدين. الآيات من 18 إلى 30 من سورة المدثر

سيكون جيدا النظر إلى تلك العلاقة الترابطية بين العقل وسماع القرآن والهداية، إذ يؤدي السمع في هذه العملية دورا بارزا جدا وإن حدث بصورة صحيحة يؤتي أكلا طيبا، وقد ذكره القرآن في الآية 6 من التوبة، وهذا نص صريح أنَّ في سماع القرآن الكريم سرا

روحيا سيكون سببا في هداية الناس، كما حدث مع سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه والطفيل بن عمرو السدوسي وغيرهما.

إنه ليس معيبا أن يعمل العقل في مساحة التساؤلات المشروعة عن الواجد والوجود والموجودات الكونية، وهذا الذي حدث مع سيدنا إبراهيم عليه الصلاة والسلام. كما سبق. في رحلة البحث عن خالق الوجود، إذا فهي مسألة كانت عند الأنبياء همماً فكرياً، لكنها منضبطة بنزول "الوحي والشرع الذي يضبط العلاقات بين الإنسان وقضايا الغيب، وهذه العلاقات قد تتضح من خلال الغيب، أو من خلال العقل" (الآلوسي عبد الحلیم، 2014، ص 8) توضيحاً لا يناقض الشرع والوحي.

لا تدعو هذه الدراسة إلى المثالية في تطبيق المهام الموكلة للعقل، لكنها تؤمن في ذات الوقت أنّ الذي منح العقل للإنسان أودع فيه ما يجعله في المقدمة، وهو بالضبط ما حدث مع المجتمع الإسلامي الأول بقيادة النبي صلى الله عليه وسلم والجيلين بعده بقيادة الصحابة والتابعين رضي الله عنهم أجمعين.

لقد شكّل العقل منذ القرن الخامس في طروحات الإمام الغزالي أبو حامد "مجموعة من الدواعي والعوامل التي تدفع باتجاه واحد إلى مستوى النضجين الفكري والنفسي لدى الإنسان ليكون عاقلاً، ومجيء هذا اللفظ في القرآن الكريم بصيغ متعددة دليل على هذا" (حوامده، 2003، ص 583)

5. خاتمة:

في ختام هذه الدراسة التي تناولت قدراً قليلاً جداً مما ذكر في القرآن الكريم تجاه الإنسان وبناءه وصناعته، يمكننا أن نستمر في الاعتقاد أن قراءة المنظومات القرآنية المختلفة بصورة صحيحة ودقيقة، ربما تُسهم في تصحيح التصورات البشرية تجاه الأدوار التي يمكن للإنسان تأديتها، وفي هذه الحال لن يكون مُستحيلاً الانتقال من صناعة الإنسان إلى صناعة المجتمعات كما حدث في المجتمع الإسلامي الأول، وتبعاً لهذا الطرح يمكننا أيضاً تسجيل النتائج التالية:

- ✓ أن المنظومة الإنسانية لا تنضبط إلا بالمنظومة العقلية، وأنّ هذه الأخيرة لا تنضبط هي الأخرى إلا بكتاب القرآن الكريم.
- ✓ يتيح لنا خطاب القرآن الكريم إمكانية اعتبار المنظومة العقلية التي جاءت في القرآن الكريم بصيغ مختلفة متربطة بمجالات متعددة، يمكن اعتبارها. أصلاً لمتلف المنظومات في القرآن الكريم، الفكرية، والعقدية، والسلوكية والقيمية، والأخلاقية، والتربوية، لأن وجود العقل السليم ضامن لوجود باقي المنظومات.
- ✓ لا يمكن على الإطلاق المقارنة أو التسوية بين المنظومات المنتسبة لخطاب شرعي صحيح، وبين غيرها مما تنتسب إلى دين محرف، أو لا انتساب لها أصلاً.
- ✓ أن بناء الإنسان في القرآن الكريم هو بناء متكامل لا يهتم به في جانب دون آخر.
- ✓ أن المنظومات المختلفة التي يشملها القرآن الكريم لم تكن غائبة عن الأجيال الأولى والقرون الماضية، بل كانت حاضرة في أذهان الصحابة عليهم الرضوان دون مسميات فهم معاصرو الوحي وهم من عايشوا النبي صلى الله عليه وسلم، فكانت حياتهم عملية تطبيقية أكثر من كونها نظرية.
- ✓ يجب أن ترقى أفهام الأجيال الحديثة والقادمة إلى مستوى خطاب القرآن الكريم، فالقرآن لا يمكن أن ينزل خطابه إلى مستوى أفهام الناس، لثبات أحكامه وتشريعاته.
- ✓ في الأخير يمكن أن تدعو هذه الدراسة إلى إدراج المنظومات القرآنية المختلفة (العقلية، الإنسانية، الفكرية، الحضارية.....) ضمن المناهج التدريسية والتعليمية المختلفة كفيل بتقديم الصورة المتكاملة حول هذه المنظومات.

قائمة المراجع:

- (1) - ينظر الآلوسي، شهاب الدين محمود، 1415 هـ، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، بيروت، دار الكتب العلمية، تحقيق، علي عبد الباري عطية، ط1، ج7.
- (2) - ينظر بن كثير أبو الفداء إسماعيل بن عمر، 1419 هـ، تفسير القرآن العظيم، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، تحقيق، محمد حسين شمس الدين، ط1، ج3.
- (3) - ينظر الأنصاري فريد المغربي، 1430 هـ/ 2009، بلاغ الرسالة القرآنية، من أجل إبصار لآيات الطريق، القاهرة، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة، ط1.
- (4) ينظر، السعدي إسحاق بن عبد الله، 1434 هـ 2013، دراسات في تميز الأمة الإسلامية وموقف المستشرقين منه، ، قطر، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، ط1.
- (5) ينظر التركي عبد الله بن عبد المحسن، 1419 هـ، حقوق الإنسان في الإسلام، السعودية، وزارة الشؤون الدينية والأوقاف والإرشاد الديني.
- (6) . ينظر، علي عباس مراد، 2017، الهندسة الاجتماعية، صناعة الإنسان والمواطن، الجزائر، ابن النديم للنشر والتوزيع، بيروت، دار الروافد الثقافية ناشرون، ط1.
- (7) . ينظر، الفاروقي إسماعيل، 1404 هـ، 1984 م، أسلمة المعرفة، المبادئ العامة وخطة العمل، الكويت، ترجمة عبد الوارث سعيد، دار البحوث العلمية.
- (8) . ينظر، الآلوسي عبد الحليم، 2014، المعرفة الإنسانية بين اجتهادات العقل وهدايات الوحي، مجلة المعيار، المجلد 19 العدد 37، جامعة قسنطينة.
- (9) ينظر حوامده مصطفى محمود، 2003، مهمة القرآن الكريم في تنمية التفكير المنظومي لدى الإنسان، مجلة جامعة دمشق، المجلد 19، العدد2.